المماليك والسودان ١٧٨٩ ١٨٢٢

يوسف فضل حسن

تمهيد :

سنعنى فى هذه الدراسة بتتبع تاريخ المماليك فى السودان فى أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر • ولما كانت سيطرة محمد على باشا على ولاية مصر العثمانية فى سنة ١٨٠٥ من العوامل الرئيسية التى أدت إلى تصفية المماليك سياسيا فى مصر ثم إلى تقهقرهم إلى بلاد النوبة لتعارض سياستهم وأهداف محمد على باشا فليس قصدى الدخول فى تفاصيل أسباب ذلك الصراع ونتائجه بل اكتفيت بالتعرض لبعض المعالم والسمات التى تساعدنا فى تقدير حجم المشكلة واستقراء دوافع من قرروا التقهقر إلى السودان • ومع أن تقهقر المماليك إلى بلاد النوبة كان عفويا إلى درجة كبيرة إلا أنهم نجحوا ، رغم معارضة الوطنيين ، فى إنشاء دويلة لهم فى ذلك الإقليم ، وكان طبيعيا أن يقلق هذا محمد على باشا • ومما زاد من قلقه وجعله يخطط للقضاء عليهم فى إطار مشروعه الكبير لفتح السودان إصرارهم على تحديه بالسعى لبناء قوة عسكرية لهم ربما قصدوا بها الإنقضاض على مصر • ولما أحكم محمد على قبضته على الجزء الشمالى من سلطنة الفونج لاذ المماليك بالفرار إلى كردفان فدارفور فوادای ، ثم طرابلس (١) •

المماليك فى مصر قبل عهد محمد على باشا :

المماليك فى الأصل فئة من الرقيق (الأبيض) معظمهم من أصل تركمانى استوردهم السلاطين الأيوبيون (١١٧١ — ١٢٥٠) من أواسط آسيا بقصد

١ — اعتمدت فى هذه الدراسة على ، عجائب الآثار فى التراجم والاخبار ، بولاق ، دون تاريخ ، ج ٣ ، ٤ لعبد الرحمن الجبرتى الذى أرخ فى شىء من التفصيل لنهاية المماليك فى مصر ، كما استعنت باخبار الرحالة الاوربيين الذين زاروا شمال السودان فى ذلك الوقت ، واستفدت من الرسائل المتبادلة بين محمد على باشا والجيش التركى المصرى الذى بعث به لفتح السودان وغير ذلك من المصادر .

الاستعانة بهم كحرس خاص وكجند يخدم مصالحهم فى مصر • ولما وهن نفوذ الأيوبيين تمكن قـادة حراسهم من المماليك من السيطرة على دست الحكم جاعلين من جماعتهم ذات التدريب العسكرى الممتاز طبقة حاكمة ، وظلت طبقة المماليك تمثل القوة السياسية الفعلية ، بصـورة أو بأخرى ، لفترة لاتقل عن الستة قـرون •

وفى عهد الدولة التركية (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) والتى تعرف حاليا بسلطنة المماليك نجح النظـام المملوكى فى توطيد دعائم سلطنته فى مصر ، ثم امتد نفوذه حتى شمل الشام والحجاز • وكان أساس سلطنة المماليك هو المؤسسة العسكرية أو طبقة المماليك التى تشمل كافة المماليك من جند وأمـراء كما تضم السلطان وهو عادة من أكبر قادتهم وأقدرهم • وقد نجح المماليك كطبقة عسكرية إدارية متماسكة فى توطيد دعائـم مؤسستهم حتى ضربت بجذور عميقة فى كافة مرافـق مصر السياسية والإقتصـادية • ولكن رغـم كفاءتها الحربية ظلت مقفولة على نفسها ، وفشلت فى خلق نظـام سياسى يقوم على قاعدة محلية • ولذلك ظلت الدولة المملوكية تجلب بانتظام الرقيق التركى من بـلاد القبجـاق أو البشنق فى أول الأمـر ثم مـن الجركس أو الشركس (منطقة القوقاز) مؤخرا ، وكلها تقع فى الجـزء الجنوبى مما يعـرف حاليا بروسيا • كما أن قلـة من هؤلاء المماليك كانت من عناصر أخرى كالأرمن ، والجورجيين والسلاف واليونان وغيرهم (١) • وكانت فعالية هـذه الطبقة تعتمد إلى درجة كبيرة على استمرار جلب هؤلاء الرقيـق وتدريبهم عسكريا وعلى تماسكها كطبقة حاكمة • إلا أن ازدياد التنافس التقليدى على السلطة بين الأمراء المماليك ، بالإضافة إلى العوامل الإقتصادية والسياسية أضعف من فعالية هذه الطبقة الحاكمة • وبالرغم من كل هـذا فإن سقوط مصر فى يـد الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وجعلهم منها ولاية عثمانية لـم يحـدث تغييرا جذريا على النظام المملوكى ، إذ أن الإدارة العثمانية ممثلة فى الوالى العثمانى والفرق العثمانية العسكرية التى تعينه فى السيطرة على البـلاد لـم تقو على اجتثاث نفوذهم • بل ظل أساس نظامهم كما هو إذ استمر المماليك على قديم

---

١ ــ عبد المنعم ماجد ، نظم دولة المماليك ، ج ١ ، القاهرة ، ١٩٦٤ ، ٩ــ١٤ .

عادتهم فى ممارسة جلب مماليك جدد وتدريبهم عسكريا • ونجح النظـام المملوكى فى احتواء الجهاز العسكرى واستغلاله كما تمكن الأمراء المماليك أو « البكوات » من السيطرة على الجهاز الإدارى وهيأ لهم نظـام الإلتزام فى جبى الضرائب الإستفادة من معظم موارد مصر لمصلحتهم • ومن ثم ظـل المماليك ، بقيادة كبير البكوات أو شيخ البلد الذى يحكم القاهرة وينـوب عن الوالى العثمانى ، يمثلون السلطة الحقيقية تاركـين للوالى العثمـانى الرئاسة الرسمية (١) إلا أن التنافس بين زعمائهم على مشيخة البلد وانقساماتهم ذات الصبغة الثنائية كثيرا ما عصفت بوحدتهم •

وفى سنة ١٧٨٦ سعى الخليفة العثمانى لتقليم أظافـر هؤلاء المماليك واسترداد نفوذه الفعلى على مصر • فأرسل قائده غازى حسن باشا على رأس أسطول عثمانى لتحقيق ذلك المأرب • وقـرر المماليك بزعامـة ابراهيم بك ومراد بك الفزوغلى مواجهة العثمانيين ومحاربتهم ، إلا أن ما لحقهم من هزائم فى مصر السفلى وبالقرب مـن القاهرة إضطرهم للتقهقر بفلـول مماليكهم للصعيد حيث صاروا يسيطرون عليه سيطرة تامة • ومن هناك كانوا يحاربون السلطة العثمانية ومن تعاون معها من المماليك • ولم يجد حسن باشا بدا ، بعد أن فشلت كل محاولاته للصلح مع ابراهيم بك ومراد بك وأتباعهما ، من أن يغزوهم فى عقر دارهم وأن يحتل الصعيد حتى مدينة أسوان ، حـدود مصر الفعلية من جهـة الجنـوب ، وانسحب المتمردون من المماليك إلى بلاد النوبة السـفلى •

ولم تكن هـذه هى المرة الأولى التى ينسحب فيها المماليك إلى صعيد مصر فقـد ألفوا منـذ عهدهم الذهبى (١٢٥٠ ــ ١٥١٧) ، خـلال فترات التنافس التقليدية التى تهيمن على مؤسستهم مثل هذا التقهقر الذى تتراجـع فيه فئة منهم إلى الصعيد حتى تسترد قواها ثم تعـود للقاهرة لتجرب حظها فى الصراع السياسى ، ولكن عدد من تقهقر هذه المرة كان كبيرا على غـير

---

١ ــ P. M. Holt, "The Pattern of Egyptian Political History from 1517 & 1798", in *"Political and Social change in Modern Egypt,* London, 1968, 79—90.

العادة • وربما كانت هذه هى المرة الأولى ، عدا هجرة بعض الأفراد ، التى يتقهقر فيها المماليك كفوة إلى ما وراء الشلال الأول حتى تحين لهم فرصة مواتية للإنقضاض على مصر • ولم تطل فترة انتظارهم كثيرا ، ففى أبريل سنة ١٧٨٧ عاد المتمردون إلى صعيد مصر جاعلين منه منطلقا لمناهضة نفوذ الدولة العثمانية • وبعد سفر حسين باشا نجح ابراهيم بك ومراد بك فى فرض سيطرتهما على سائر الديار المصرية وظلا يحكمانها حتى سقوطها فى يد الفرنسيين سنة ١٧٨٩ •

ورغم قصر مدة الإحتلال الفرنسى ، والتى انتهت بالتدخل الحربى للعثمانيين والبريطانيين فى سبتمبر ١٨٠١ ، فإن المعارك التى خاضها المماليك والإنقسامات الشديدة التى ظهرت بينهم ، وموت مراد بك فى أبريل سنة ١٨٠١ وهروب ابراهيم بك خارج البلاد كلها قللت من فعالية المماليك ، وآلت زعامة المماليك إلى اثنين من مماليك مراد بك هما عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى •

وقد نبه الإحتلال الفرنسى العثمانيين لأهمية مصر الإستراتيجية فزادهم ذلك تعلقا بها وقرروا عدم السماح للمماليك بالتسلط عليها ، بل حرموا عليهم ممارسة جلب مماليك جدد من منطقة القوقاز ، ومن ثم لجأ المماليك لسد النقص ببعض الأوربيين كما أخذوا فى الاستفادة من الرقيق الأسود المجلوب من سنار ودارفور •

وكان انسحاب القوات البريطانية فى مارس ١٨٠٣ قد تبعته فترة من التيه إمتدت لعامين وجد المماليك والعثمانيون أنفسهم فيها وجها لوجه • وقد وقع عبء التخلص من المماليك على كاهل محمد بك ، قائد الجند الأرناؤط (الألبانيين) الذين أرسلهم الخليفة العثمانى لمحاربة الفرنسيين • هذا وقد أخذ محمد على باشا يخطط لكى يجعل من مصر ولاية مستقلة تحت قيادته •ولتحقيق هذا الهدف فقد تعاون مع المماليك بقيادة عثمان بك البرديسى ضد كل من الوالى العثمانى ومحمد بك الألفى الزعيم المملوكى • ثم اختلف محمد على مع البرديسى وجماعته وطردهم ، بعد أن حاصروا القاهرة ، إلى أقاصى الصعيد حيث تمت سيطرتهم عليه •

الصراع بين المماليـــك ومحمد على باشا :

إقتنع محمد على باشا الذى عين واليا على مصر سنة ١٨٠٥ مـــن خـــلال هذه الأحداث بأن المماليك الذين يقدر عددهم بنحو أربعة الاف رجل مازالوا يمثلون قوة لا يمكن تجاهلها ، رغم ما أصابهم مـــن ضعف نتيجة اختلافاتهم الداخلية ومن جراء المعارك التى خاضوها فى خلال عقدين من الزمان • بل أن خبرتهم الطويلة فى حـــكم مصر ومقدرتهم العســـكرية ، وسيطرتهم على « الإقتصاد » المصرى ، تقف حجر عثرة أمـــام تحقيـــق مطامحه لإنشاء دولة مستقلـــة •

لم يشأ محمد على باشا ، وربما بسبب ضعف موقفه كوال جديد ، أن يبادر المماليك بالحرب السافرة بل لجأ إلى الحيلة والمكر فى كثير من تصرفاته وقد نجح فى أن يستغل ظاهرة إنقسام المماليك ليفـــرق بينهم • كما أن موت زعيمى المماليك عثمـــان بك البرديسى (نوفمبر ١٨٠٦) ومحمد بك الألفى (يناير ١٨٠٧) ، اللذين تعاونا مع الأتراك والإنجليز ، قـــد أراح محمد على من اثنين من أقـــدر أمراء المماليك ، وفتح الطريق أمامـــه لوعوده الكاذبة ، وللمجاهـــرة بحـــرب مـــن تحـــــداه •

وفى نهاية عام ١٨٠٧ وصل محمد على باشا إلى صلح مـــع شاهين بك خليفة الألفى بل وأسكنه الجيزه وأقطعـــه إقليم الفيوم (التزاما وكشوفية) وأنعم عليه بأربعين بلدة أخرى وغير ذلك من الإغراءات • واطمأن شاهين بك وأتباعه وركنوا إلى وعود محمد على وأخـــذوا يتوسطون بينه وبين جماعات المماليك الذين اســـتاءوا من تدخـــل محمد على فى شئونهم الداخلية • وفى سبتمبر ١٨٠٨ قرر محمد على باشا محاربـــة المماليك عندما لمس تباطأهم فى أداء ما عليهم من غلال عن الأراضى التى يتحكمون فى زراعتها •

ورغم انتهاء الخلاف بتوسط شاهين بك وقبول المماليك تسديد ماعليهم خلال شهرين إلا أنهم لم يكونوا جادين فيما التزموا به بل داوموا على تحدى محمد على • ولما تيقنوا من إصراره على محاربتهم أضطروا ومالوا للإنصياع إلى تهديداته المتزايدة وعادوا مـــن الصعيد فى أعـــداد كبيرة حيث عسكروا فى

الجيزة ، وهناك تردد الرسل بينهم وبين محمد على فى محاولة للوصول إلى اتفاق • ويبدو أن سوء استقبال محمد على لزعماء العائدين ، ومداومة ابراهيم الكبير فى التحذير من مغبة الإستماع إلى وعود محمد على كان سببا فى عودة المماليك إلى الصعيد وهم أكثر قوة ومنعة بعد أن انضم إليهم شاهين بك وجماعته الذين كانوا قد قبلوا التعاون مع محمد على • وفى ٢٨ يوليو ١٨١٠ هاجمتهم جيوش محمد على ثم تعقبتهم فى مراكز تجمعاتهم ، وألحقت بهم هزيمة ماحقة فى بدرمان • ولم يقو شاهين بك على مواصلة الحرب فطلب العفو وعاد إلى القاهرة ليعيش فى كنف محمد على باشا ، وتقهقر باقى المماليك، وكانوا نحواً من الألف ، إلى أقصى الصعيد حيث ظل نصفهم فى منطقة إسنا بينما انسحب الباقون بقيادة ابراهيم بك وعثمان بك حسن إلى ماوراء أسوان ، إمعانا فى البعد من بطش محمد على • ومن هاتين الطائفتين كان معظم المماليك الذين هاجروا إلى السودان بعد أن سمعوا بما لحق بجماعة شاهين بك فى مذبحة القلعة الشهيرة •

وفى القاهرة إنتهز محمد على باشا فرصة الإحتفال بتقليد إبنه طوسون قيادة الجيش المبعوث للحجاز لمحاربة الوهابيين ليوجه ضربته القاضية للجماعة التى أبدت نوعا من التعاون ، وهى جماعة شاهين بك وأمراء المماليك القاطنين بالقاهرة وماجاورها ، فدعاهم لمشاركته البهجة • وفى عصر الجمعة ٥ صفر ١٢٢٦ هـ الموافق أول مارس ١٨١١ تدفق أمراء المماليك فى أبهى حلة بمماليكهم وجنودهم وأتباعهم نحو القلعة ، وبعد انتهاء مراسم الإحتفال إنقض عليهم جنود محمد على بوابل من الرصاص فأفنوهم جميعا • ويذكر الجبرتى الذى عاصر تلك الأحداث ، أن كثيرا من المماليك ممن لم يشتركوا فى الحفل قد هرب «وخرجوا إلى قبلى وفر من نجا منهم إلى الشام وغيرها (١)» • ولم يكتف محمد على بمذبحة القلعة بل أصدر أوامره لتعقب المماليك فى الأقاليم فسقط كثير منهم فى مذابح أقل ضراوة ، ولم ينج منهم إلا القليل •

وانضم من نجا من تلك المجازر إلى المجموعة الثانية من المماليك الذين انتشر معظمهم فى الصعيد الأعلى عامة وفى منطقة إسنا خاصة • وخلال عامى

---

١ ـ الجبرتى ، ج ٤/١٢٩ ـ ١٣٠ .

١٨١١ و ١٨١٢ سعى مماليك المجموعة الثانية ومماليك المجموعة الثالثة إلى بسط نفوذهم على المنطقة الواقعة بين إسنا فى الصعيد الأعلى وابريم فى بلاد النوبة السفلى أو النوبة العثمانية ، ولكن حملات ابراهيم باشا بن محمد على إضطرتهم للتقهقر آخر الأمر إلى منطقة دنقلا .

ووجه ابراهيم باشا أولى ضرباته إلى مماليك إسنا الذين ما أن سمعوا بمقدمه ، ربما فى أواخر سنة ١٨١١ ، حتى هجروها واعتصموا بجبال اسنا بين عرب العبابدة والبشاريين . وفى تلك الجبال لاقى المماليك ، وكان عددهم نحو الأربعمائة ، مشاق عظيمة منها قلة الطعام والكلأ . فلما رأى ابراهيم ما حل بهم أخذ فى مفاوضتهم وقدم لهم الوعود ومناهم الأمانى . ولما نفذت أموالهم ونفقت خيلهم إستجاب المماليك لوعود ابراهيم آملين فى السلام والإستقرار ونزلوا من الجبال فى جماعات صغيرة ، عدا ثلاثين منهم . وما أن بلغوا إسنا حتى غدر بهم ابراهيم باشا كما فعل أبوه من قبل فى مذبحة القلعة، فقتلوا جميعا ومعهم نحو مائتين من الرقيق السود . ولم ينج من تلك المذبحة إلا مملوكين فرنسيين أنقذا من الموت إستجابة لشفاعة طبيبه الخاص .

المماليك فى بلاد النوبة السفلى :

لم يكتف ابراهيم باشا بما حل بالمماليك فى الصعيد الأعلى بل تعقب فلولهم المكونة من المجموعة الثالثة ومن لحق بها ممن نجو من مذبحتى القلعة واسنا وكان من بينهم عدد من كبار زعماء المماليك الذين انتشروا جنوب أسوان . ولما سمع ابراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن ، وكانا قد أقاما فى كرشا فى جماعة من المماليك تقدر بالخمسمائة ، بمقدم الجيش التركى تقهقرا إلى الجنوب قليلا وعند قرية كشتمنه (١) ، وهى فى منتصف الطريق بين أسوان والدر ، إستبسل الجيشان فى معركة إنتهت بمقتل كثير من المماليك واندحر الباقون بقيادة ابراهيم بك الكبير وعثمان بك حسن إلى الجبال الشرقية حيث حطوا الرحال مع عرب العبابدة . وهناك سامهم العبابدة سوء العذاب ، إذ ابتذوا أموالهم ليجبرونهم على بيع الزاد والماء ، ولما قل

---

١ ـ يسميها البعض قوز تمنه ولعل ما اوردناه هو الصواب .

الماء فى الآبار أمر المماليك خدمهم وحشـــمهم ، وكان مـــن بينهم عدد مـــن الراقصات ، بالعودة إلى مصر • وبالقرب من أسوان هاجمهم العبابدة فسلبوهم مايملكون وجردوهم من ثيابهم ، كما فتكوا بكثير من الذين ضلوا الطريـــق متعللين بأن المماليك هـــم الذين بدأوهم بالعـــدوان إذ استحـــلوا ماشيتهم واستباحوا نساءهم • ولما تيقن زعماء المماليك من أن الجيش التركى قـــد عاد إلى أسوان ، بعد مضى بضعة أسابيع ، هبطوا إلى ضفاف النيل فى مايو سنة ١٨١٢ وعبر بعضهم النهر ، وكان منسوب مائه منخفضا ذلك العام ، من مخاضة بالقرب من كشتمنه ، واخترقوا الصحراء الغربية إلى أرقو • ويبدو أن أغلبية المماليك من أمراء ومماليك قد تابعوا النهر ذاهبين للقرى إلى أن بلغوا ابريم • وقد خرب المماليك ذلك الإقليم وقضوا على الأخضر واليابس • وقد تعرضت ابريم إلى محنة عظيمة عندما قتلوا حاكمها « التركى » (١) • ويؤكـــد لـــغ (Legh) الذى زار تلك المنطقة بعد عام من إنسحاب المماليك إلى دنقلا أنهم قد خربوا ابريم خرابا شديدا حتى صارت كالصقيع ، ولم تعد فيها بقية مـــن حياة ، كما لم يبق من يتجول بين خرائبها من الوطنيين وحتى أشجار النخيـــل الباســـقة لـــم تعـــد تشـــاهد (٢) •

وتعقب جند محمد على المماليك فى ذلك الموقع النائى وحاربوهم ، ربما للمرة الأخـــيرة ، بالقرب من ابريم • ويصف الجبرتى هـــذا اللقاء فيقول : « وفى شهر ربيع الآخر ١٢٢٧ / مايو ١٨١٢ ورد الخبر بأن العسكر بقبلى ذهب إلى خلف ابريم وضيقوا عليهم الطرق وماتت خيلهم وجمالهم وتفـــرق عنهم خدمهم واضمحل حالهم وحضر عدة من مماليكهم وأحفادهم إلى ناحية أسوان بإيعاز من الأتراك فقبضوا عليهم وقتلوهم عن آخرهم ، وفعلوا قبل ذلك بغيرهم كذلك (٣) » •

---

١ ـ J. L. Burckhardt, *Travels in Nubia*, London, 1819, 32;
وجاء فى مقال
"The Mamluks in the Sudan", *Sudan Notes & Records*, V p.90, 1922,
انهم قتلوا سكانها ولكنى لم اعثر على ما يؤيد هذه الواقعة فى المصادر المعاصرة .

٢ ـ Thomas Legh, *Narrgtive of Journey to Egypt & the Country beyond Cataracts*, London, 181 6, 76.

٣ ـ الجبرتى ، ١٢٠/٤ .

ومع أن وصف الجبرتى يصلح لأن يكون وصفا موجزا لكل الإشتباكات التى حدثت بين الطرفين فى تلك المنطقة إلا أنه يقرر فى جلاء أن الأتراك قد لحقوا بالمماليك حتى منطقة ابريم • ولعل ما يؤكد رواية الجبرتى ما جاء على لسان رحالين انجليزيين من أن الأتراك قصفوا (بالمدافع) مدينة ابريم ذاتها فاضطر المماليك لمغادرتها ؛ ويضيفان أن المماليك خرجوا فى نحو ألف ومائتين من الماشية (قدرت قيمتها بمائة ألف ريال) هى جماع ما نهبوه من الوطنيين (١) • ولم يقف التخريب الذى أحدثه المماليك فى شهور قلائل عند هذا الحد بل أكمل الجنود الأتراك الباقى • وبعد إنسحاب كل من الأتراك والمماليك من تلك المنطقة تفشت مجاعة رهيبة هلك فيها على تقدير بوركهارت ثلث السكان من الفاقة والعوز • وهرب بعض السكان إلى مصر واستقروا فى القرى الواقعة بين إسنا وأسوان ، وهناك فتك الجدرى بكثير منهم ولكن جماعات منهم أخذت فى العودة إلى موطنها الأصلى عند زيارة بوركهارت لتلك المنطقة فى فبراير ١٨١٣ (٢) •

ولا شك أن تعقب جند محمد على باشا للمماليك فى بلاد النوبة السفلى وانتصارهم عليهم أقنع زعماء المماليك بأن ماتبقى من فلولهم والذى يقدر بنحو ثلثمائة من المماليك البيض (أو خمسمائة حسب تقدير عمر طوسون (٣)) ومثلهم من الرقيق السود ونسائهم وأطفالهم لم يعد كافيا لمقاومة جيوش محمد على النظامية • ومن ثم تابع المماليك توغلهم فى بلاد النوبة مستغلين ضعفها ومخربين قرى دار السكوت ودار المحس حتى التأم شملهم فى أرقو حاضرة ملوك دنقلا ومقر محمود العدلانابى نائب ملك الشايقية •

الحالة السياسية فى بلاد النوبة ومملكة الفونج :

مع أن توغل المماليك لم يكن يمثل غزوا عسكريا منتظما إلا أنهم كانوا أول قوة عسكرية خارجية تبلغ منطقة دنقلا منذ سقوط مملكة المغرة المسيحية

---

١ – George Waddington & Bernard Hanbury, *Journal of a Visit to ... some Parts of Ethiopia,* London, 1822, 25.

٢ – Burckhardt, *Op. cit.*, 122.

٣ – Omar Toussoun, "La Fiv des Mamlouks" *Bulletin de Institute d' Egypte,* Tome XV (1932— 1933). 195.

فى أواسط القرن الرابع عشر نتيجة الحملات العسكرية التى شنها سلاطين مصر من المماليك وما تبعها من هجرة عربية • ومنذ ذلك التاريخ لم يحظ ذلك الجزء الشمالى من السودان الشرقى بحكومة مركزية قوية • فلما نشأت مملكة العبدلاب ، ربما فى أواسط القرن الخامس عشر (ومن بعدها سلطنة الفونج الإسلامية فى أول القرن السادس عشر) ، فى السودان الشرقى إمتد نفوذها كما جاء فى وثيقة وقفية ترجع إلى سنة ١١٤٩/١٧٣٦ حتى « بندر أسوان » (١) • لكن نفوذهم الإسمى على بلاد النوبة السفلى الواقعة بين الشلال الأول والثالث لم يدم طويلا إذ سرعان ما تقلص على إثر امتداد النفوذ العثمانى إلى بلاد النوبة السفلى فى عهد السلطان سليمان القانونى (١٥٢٠ ــ ١٥٥٠) ؛ ففى أواسط القرن السادس عشر نشب صراع بين الجوابرة حلفاء ملك أرقو ، مندوب سلطنة الفونج المحلى ، وقبيلة الغربية ، إنتصر فيه الأوائل فيما يبدو • فلما تمكن العثمانيون من مصر وهيمنوا على صعيدها إستنجدت قبيلة الغربية بهم فأعانها أزدمير باشا ، واحتل حصن ابريم، ذا الموقع الإستراتيجى الهام ووضع عليه حامية عسكرية من جنود البوسنة ، كما خلف حاميات مماثلة فى أسوان وساى • ولم يتدخل العثمانيون كثيرا فى الشئون الإدارية لتلك المنطقة بل عينوا كاشفا عليها ليجبى الضرائب وكان مركزه الدر • وصار الأمر ورثة بين أحفاده الذين اشتهروا بالكشاف وانتشروا فى القرى الرئيسية من بلاد النوبة السفلى •

وترجح بعض الروايات قيام حرب أخرى بين العبدلاب (او الفونج) والأتراك فى النصف الأول من القرن السابع عشر حول الحدود • ومن ذلك التاريخ صارت قرية حنك الواقعة جنوب الشلال الثالث هى الحد الفاصل بين البلدين • وقد عرف ذلك الجزء من بلاد النوبة عند العثمانيين ببربر ستان أو بلاد البرابرة (٢) •

فلما توغل المماليك فى بلاد النوبة السفلى وجدوا أن أحفاد الكاشف الأول والبوسنة قد اختلطوا بالوطنيين وربما فقد الأواخر كثيرا من سمات

---

١ ــ يوسف فضل حسن ، مقدمة فى تاريخ الممالك الاسلامية ، بيروت ، ١٩٧٢ .

٢ ــ P. M. Holt, *A Modern History of the Sudan*, London, 1963, 23—24.

الجندية التى يتمتع بها أجدادهم ومـن ثم لم يكونوا فى قـوة تمكنهم مـن مواجهة المماليك .

وقد أدى النسق الإدارى الذى سار عليه الفونج والعبدلاب فى تصريف شئون البلاد إلى تشجيع اللامركزية إذ تركوا شئون القبائل والأقاليم المختلفة فى يد المشيخات أو المملكات الصغرى . وممن اشـتهر من هؤلاء آل الزبير ملوك أرقو أو دنقلا الذين كانوا يسيطرون على الجزء الشمالى من المملـكة والواقع بين الشلال الثالث وجبـل الضيقة . كما أن ملوك الشـايقية كانوا يهيمنون على المنطقة التى تلى دنقلا وتمتد حتى الشلال الرابع . وربمـا كانت الضرائب التى يسددها ملوك دنقلا والشايقية إلى العبدلاب هى مظهر الولاء الأساسى الذى يربط بين تلك المشيخـات الإقليمية والحكومة المركزية سواء فى قرّى (حلفايـة الملـوك) أو سـنار .

ولكن هزيمة العبدلاب على يـد الفونج ، إثر نزاع حـول السلطة ، فى أوائل القرن السابع عشر شجعت الشايقية ، وهـم قـوم ميالون للإستقلال ويشتهرون بالفروسية ، على التمرد ضد العبدلاب . فأمسكوا عن دفع الخراج وهزموا العبدلاب فى النصف الثانى من ذلك القرن . وما أن اشـتد ساعدهم حتى أخذوا يغيرون على جيرانهم من الدناقلة والمحس وربما بلغت سراياهم بلاد السكوت كما أغاروا على أطراف مشيخة العبدلاب وديار الجعليين . وتواترت الحروب بين الشايقية وملوك أرقـو ولكن الشايقية تمكنوا مـن هزيمتهم . وبعد تقلص نفوذ العبدلاب فى الشـمال وضعف سلطان الفونج عامة وتفكك ملكهم لم يجد الدناقلة مناصا من الصـلح مع الشايقية والتخلى لهم عن نصف خراجهم حتى يكفوا عن أذاهم . وكان زعمـاء الشايقية يتنقلون بين دنقـلا والخندق وأرقو ليجمعوا نصيبهم من الخراج . وفى خلال القرن الثامن عشر زادت قوتهم وملكوا الخيل الجيـاد (التى إشتهر بها إقليم دنقلا) واغتنوا الدروع . فلما بلغ بكوات المماليك أرقو كانت مشيخة الشايقية أقوى دويلات شـمالى سـنار (١) .

---

١ - Burckhardt, *Op.cit.*, 55, 66.

وعند ظهور المماليك فى دار المحس عام ١٨١٢ حـاول كاشـفها محمد كاشف أن يغريهم بالإنحياز إلى جانبه فى حربه ضد الملك طمبل ، ملك أرقو • ولكن زعيمى المماليك ابراهيم بك الكبير وعبد الرحمن بك اللذين كانا يقودان فرقتين شبه مستقلتين إختلفا فى الجانب الذى ينبغى عليهما الوقوف معه وعند بلوغهما أرقو ودراستهما للوضـع السياسى آثرا أن يقفـا إلى جانب ملكها • وخوفا من بطش المماليك وضع محمد كاشف نفسه تحت حماية والى مصر (١) •

المماليك فى بلاد النوبة ودار الشايقية :

وما أن وصلت فلول المماليك إلى أرقو حتى استقبلهم ملكها ومحمود العدلانابى زعيم الشايقية على تلك المنطقة ــ وربما حاكمها الفعلى ــ أطيب استقبال وأحسنا وفادتهم • ولما أعلنوا أنهم يرغبون فى مواصـلة رحلتهم إلى سنار أجزل لهم محمود العدلانابى العطاء وأهداهم الخيل والإبـل والعبيد والزاد الوفير • ولكن رغم ما لحق بالمماليك من هزائم فما زالوا يمنون النفس بالإنتقام من محمد على باشا ، وليس مـن الحكمة أن يتركوا إقليم دنقـلا ذا الوضع السياسى المتأرجح والمزارع الغنية والخيل الجياد وهم على أبواب مصر دون أن يستفيدوا من إمكانياته فى استرداد قواهم وتحقيق مأربهم • ويروى أن اثنين من زعماء المماليك وهما ابراهيم بك الجزائرى وعثمان بك بهنس قد تخلفا عن رفاقهم فى الجبال الشرقية آملين فى العودة إلى مصر إذا تغير الوضع السياسى فيها ، ولكنهما أضطرا آخر الأمر أن يلحقا برفاقهم فى دنقـلا (٢) • كما أن عثمان بك البرديسى أقسم ألا يقص شعر رأسه أو يحلق ذقنه قبل أن يدخل القاهرة منتصرا (٣) •

وقبل أن يعلن زعماء المماليك عن نواياهم صراحة ، وهى نقطة أرجو أن أعود إليها بعد قليل ، يبدو أنهم تابعوا رحلتهم إلى الجنوب قليلا حيث حطوا الرحال بالقرب من قرية المراغة وشيدوا لهم سورا يقى ماشيتهم مـن غـارات الأعراب كما أخذ الأثرياء منهم ، وهم قلة ، فى تشييد منازل لهم (٤)

---

١ ــ Waddington and Hanbury, *Op.cit.*, 225, 226.
٢ ــ Burckhardt, *Op.cit.*, 15.
٣ ــ Legh, *Op.cit.*, 78.
٤ ــ Ibid, 77—78.

ولم يمض وقت طويل على قدوم المماليك حتى تصدى نفر منهم لمحمود العدلانابى عندمـــا كان فى زيارة للقاضى محمود مختار وبادروه بالسؤال عن مؤن لخيلهم • فقـــدم محمود بعض الذرة وعهد إلى بعض أعوانه أن يرسلوا قاربـــا محملا بالمؤن إلى معسكرهم • ولكن طبعهم الغادر غلب عليهم فقطعوا اليد التى آوتهم وأكرمتهم . وقتلوا القاضى محمد مختار وكـــان ذلك الحدث بداية لتسعة أعوام كالحة تسلط فيها المماليك على إقليم دنقلا وأسسوا دويلة تعتمـــد على السلب والنهب •

وفى تلك الظروف انحاز ملك أرقو من آل الزبير ولعـــل اسمه محمـــد ادريس طمبـــل إلى المماليك ضد الشايقية أعدائـــه التقليديين إلا أن أخـــاه (والأرجح عمه •• إذ تختلف المصادر فى هذه النقطة) طمبـــل بن الزبير خف إلى مصر ملتمسا عون محمد على باشا العسكرى ضد الوافدين الجدد • ويفهم من رواية لبروكهارت أن نحو ثمانين فارسا من جماعةمن الشايقية كانت تناصب محمود العدلانابى وجماعته العداء قد انضمت إلى المماليك (١) • ومهما يكن من صحة هذهالرواية فإن المماليك صاروا قوة سياسية هامة فى مسرح الأحداث المحلى ، ولم يعد من السهل التخلص منهم ، فسرعان ما انتشروا فى إقليم دنقلا ينهبون أموال الشايقية ويستأثرون لأنفسهم بثلث إنتاج الأرض • وقد لاقى سكان ذلك الإقليم الأمرين ، أولا لأن مايغتصبه المماليك منهم كان أكبر من الخراج الذى يجبيه الشايقية ويقسمونه مناصفة مع ملك أرقو • وثانيا فقـــد صار إقليم دنقلا مسرحا لغارات الشايقية الذين ينقضون فى جنح الليل ينهبون ماتقع عليه أيديهم • ولعل تزايد هذه الغارات قد زاد من حنق المماليك على الشايقية وجعلهم يعقدون العزم على مهاجمتهم فى عقر دارهم •

وفى يناير سنة ١٨١٣ خرج المماليك بكامل قواهم العسكرية نحو مروى، حسب رواية بوركهارت الذى كان فى زيارة لدار المحس فى ذلك التاريخ ، إلا أن وادنجتون وهامبرى اللذين زارا موضع هذه الأحداث فى عام ١٨٢٠ يرويان أن الجيش المملوكى خرج بعد عشرين شهرا من مجيئهم إلى دنقـــلا • وكانت حملتهم بمعاونة الملك صبير ، أحد ملوك الشايقية الذى كان يعـــادى شاويش

---

١ - Burckhardt, *Op.cit,* 66; Waddington & Hanbury *Op.cit,* 225,226.

ملك مروى • وخاض الفريقان عددا من المعارك ربما كان أشهـرها معركتين : دارت الأولى فى الكورلقه وفيها انتصر المماليك على الشايقية وقتلوا منهم نحو مائة وخمسين فارسا بينما راح ضحيتها خمسون مـن المماليك أنفسهم • وفى أثناء سير المماليك نحو مروى أرسل الشايقية فرقـة من فرسانهم عبر المحيلة لتهاجم المراغة • وعندما سمع المماليك بالخبر عادت فرقة منهم بقيادة ابراهيم بك لتحمى ظهرهم فى المراغة وتنقذ ما تركوا من أتباع ومتاع ولكن الشايقية كانوا أسرع منهم إذ قتلوا جماعـة من المماليك وأتباعهم فى أرقو والخنـدق واستولوا على بعض أموالهم • واشتبكت الفرقة الثانية من المماليك بقيـادة عبد الرحمن بك مع الشايقية فى الحيتانى وانتهت الحرب دون نصر واضح لفئة على الأخرى إذ عاد المماليك بعـدها إلى المراغة وركـزوا قواتهم فى الجـزء الشمالى بينما كف الشايقية عن التحرش بهم (١) •

وعلى إثر تلك الحرب التى أضنتهم وتعذر عليهم فيها قهر أعدائهم إنسحب المماليك من الجزء الجنوبى وركزوا قواتهم فى الجزء الشمالى واتخذوا مـن الضفة الغربية الممتدة من حنك إلى الخندق ، بما فيها من جزر،دائرة نفوذ لهم•

جعل المماليك من مراغة التى استقروا فيها أول الأمر قاعدة لهم وشيدوا بالقرب منها ، على بعد ميلين نحو الجنوب منها ، « أوردى » ــ أى معسكرا باللغة التركية • وعرف هذا المعسكر بأوردى المنفـوخ نسبة إلى محمد بك المنفوخ الذى يزعم أنه أول من احتـل ذلك الموضـع (٢) • وازدهـر ذلك « الأوردى » حتى صار معلما هاما يمثـل المدينة الجديدة التى قامت حوله ، وعرف ذلك الموقع بدنقلا العرضى عند كافـة السودانيين بعد أن فـاق دنقلا العجـوز شـهرة •

وعلى الرغم من التحديات والصعاب التى واجهتهم فى دنقلا فإن المماليك انصرفوا إلى إصلاح شأنهم وتعمير تلك البلاد بقصد الاستفادة من إمكانياتها التجارية والزراعية والعسكرية ، ومع أن الحرب المستمرة بينهم وبين الشايقية

---

١ - Waddington & Hanbury *Op.cit*, 228, 229; Burckhardt, *Op.cit*, 67, 227.

٢ - R. Hill, *The Frontier of Islam*, London, 1970, 3.

قد أضرت بالتجارة كثيرا ، إلا أنهم استغلوا الأموال التى جلبوها فى التجارة • فأرسل أحدهم ما يملك من عملة بندقية وتركيـة إلى شندى ليقايض عليها بريالات ، كما كانوا يشترون حاجياتهم من ملابس وأحذية من القوافل المصرية التى كانت تتردد على شندى • وما أن استتب لهم الأمر فى دنقلا حتى فتحوا طريقا تجاريا مباشرا يربطهم بكردفان (١) • ومن ثم سهل عليهم بلوغ أطراف مصادر الرقيق ، وقد أكثر المماليك من شراء الرقيق ليكملوا ما لحـق بقوتهم العسكرية من نقص • ولم يكن مماليك دنقلا أول مـن استحـدث استخدام العبيد السود فى الجندية ، بل أن الأمير عثمان بك طمبورجى كان قـد كون منهم جيشا بلغ تعداده أربعة آلاف مقاتل فى نحو سنة ١٨٠١ (٢) • وذكر أن عدد المقاتلين من السـود المسلحين بلـغ خمسـة أو ستة ألف مقاتـل (٣) • وشيد المماليك بضع سفن شراعية تجارية (٤) • ولم يكتفوا بالتجارة التقليدية بل فرضوا الضرائب على القوافل التجارية التى تسير بالقرب مـن ديارهم فى دنقلا • ففى إحدى المرات فرضوا ضريبة قدرها تسعة آلاف دولار على قافلة تجارية مكونة من أربعة آلاف بعير قادمة من دارفور (٥) •

والتفت المماليك أيضا إلى أساليب الزراعة وحسنوها • فيروى وادنجتون أنهم أدخلوا بعض التحسينات على نظم الرى وشجعوا الفلاحـين على زراعة القمـح بدلا من الذرة (٦) •

ويعكس اهتمام المماليك بالزراعة أنهم ربمـا تنازلوا قليلا عـن حيـاة الترف التى كانوا يعيشونها فى مصر • كما أن قسوة الحياة فى دنقـلا وحرارة

---

١ – Waddington and Hanbury, *Op.cit,* 227; Burckhardt, *Op.cit,* 223.

٢ – A. E. Robinson, "The Arab Dynassty of Dar-For" Part VI. Journal of the African Society,XXIX, "1929—30" XXIX, P. 164.

٣ – H. Light, *Travels in Egypt, Nubia etc. in the Year* 1814, London, 1818, 57.

٤ – Legh, *Op.cit,* 77; Waddington & Hanbury, *Op.cit,* 229.

يقول وادنقتون ان المماليك بنوا نحو مركبين أو ثلاثة أحرقوا منها واحداً عند قدوم اسماعيل باشا الا أن وثيقة تركية تؤكد أن الجيش التركى المصرى استفاد من عشر من سفن المماليك عند دخوله دنقلا/ دفتر ٦ معية تركى / بتاريخ ٤ محـرم ١٢٣٦ ، « دار المحفوظات القلعة ، القاهرة ».

٥ – C. L. Irby and J. Mangles, *Travels in Egypt, Nubia, etc.,* London, 1845, 17.

٦ – Waddington and Hanbury, *Op.cit,* 227.

نفسها لم تكن لتهيىء لهم من دواعى الترف والبهجة الكثير ، ويبدو أنهم لم يكونوا جميعا سعداء بالموطن الجديد ، رغم ما حققوه من إنتصارات • فقد مات كثير منهم فى صيف عام ١٨١٢ من جراء حمى خبيثة ، لعلها التيفويد ، كما عجزوا عن تحمل الحرارة وهم يتدثرون بملابس صوفية سميكة كالتى اعتادوا لبسها فى مصر فلجأوا إلى إعداد عدد من الأطواف العائمة المظللة بالحصر والتى يتولى خدمهم رشها بانتظام حتى تقيهم الحر (١) •

ويبدو أن شظف العيش فى دنقلا هو الذى دفعهم لإرسال زوجاتهم « القاهريات » إلى مصر بعد أن هدأت الأحوال فى دنقلا (٢) • وقد قضى بعض أولئك النسوة فترة الحرب التى دارت رحاها بين بعولهن والشايقية فى شندى صونا لهن من مخاطرها (٣) • واتخذ بعض المماليك من النوبيات والحبشيات أزواجا لهم (٤) •

وما أن وصل المماليك دنقلا حتى أكثروا من شراء الخيل الدنقلاوية واتخذوها مطايا لهم • وتشتهر الخيول الدنقلاوية بأنها عربية المنبت ولكنها تمتاز عن الخيل العربية بالحجم الكبير والعظم العريض • ويبلغ ثمن الواحد منها من خمسة عبيد إلى عشرة ، وربما يتراوح ثمنه بين الثمانية والاثنى عشر عبدا (٥) •

محاولة محمد على تصفية المماليك :

لم يغير احتلال المماليك لدنقلا من الظروف التى أبعدتهم عن مصر • فبالرغم من تضعضع قوتهم العسكرية ظلوا يأملون فى العودة إلى مصر لاسترداد مجدهم الضائع • ولعل مما زاد من قلقهم أن إقامتهم لحكومة مملوكية فى دنقلا نبه محمد على إلى الخطر الذى يحيق بملكه من الجنوب • وعليه سعى محمد على إلى عزلهم عن العالم الخارجى حتى يقلل من فعاليتهم •

---

١ – Burckhardt, *Op.cit.*, 68.

٢ – Waddington & Hanbury, *Op.cit.*, 229.

٣ – Burckhardt, *Op.cit.*, 271.

٤ *Ibid*, 278; Waddington and Hanbury, *Op.cit.*, 229

٥ Burskhardt, *Op.cit.*, 61; Legh, *Op.cit.*, 77.

فأصدر أوامره بمنع المتاجرة فى البارود فى صعيد مصر حتى يتعذر على المماليك شراؤه • وعلى إثر هذا الإجراء بلغت قيمة الست دستات من طلقات الرصاص عبدا واحدا فى دنقلا • كما أمر بقتل زعيم إحدى القبائل العربية التى تسكن صعيد مصر بسبب صلاته الحميمة مع المماليك فى سنة ١٨١٥ (١) • وإمعانا فى الحذر بعث محمد على الرسل يحملون الهدايا إلى سلطان سنار ١٨١٣ وإلى ملك غندرا فى عام ١٨١٤ ويطلبون منهما ألا يقدما أى عون لأعدائه المماليك ويحرضهما عليهم (٢) • ولعل السبب فى ذلك أن نجاح تلك الشرذمة المسلحة من المماليك فى فرض سلطانها على دنقلا رغم مقاومة الدناقلة والشايقية ، وتقديرها استحالة توجيه ضربة قاضية لمحمد على قد دفعها للتفكير فى الإبتعاد عن دائرة نفوذ محمد على باشا • ويبدو أنهم فكروا فى الإستيلاء على بعض موانى البحر الأحمر مثل مصوع التى ربما سهل لهم منها الحصول على مماليك من جورجيا • ويرجح بوركهاردت أنهم كانوا يبيتون النية لغزو الحبشة فعلا (٣) •

وقبل أن يحرك المماليك ساكنا خطفت يد المنون ابراهيم بك الكبير أكثر قادتهم حنكة وتجربة، كما مات عثمان بك حسن • وظل عبدالرحمن بك المنفوخ يعاونه محمد بك المنفوخ يقودان فلول المماليك فى تلك الظروف القاسية • وبموت ابراهيم بك الكبير إفتقد بعض المماليك ، خاصة صغار الأمراء قيادته الرشيدة وسئموا شظف العيش النسبى فى دنقلا وقسوة الحياة وطول الغربة فيها، فسعوا للإتصال بمحمد على باشا فى أول سنة ١٨١٦ • فذهب سليم كاشف يستعطفه بابة عنهم ويرجوه أن ينعم عليهم بالأمان ويأذن لهم بالعودة إلى الديار المصرية على أن يلتزموا بسداد ما يفرض عليهم من خراج • وبعد استفسارات

---

١ – Omer Toussoun, *Op. cit.*, *Bulletin de' L' Institute d' Egypte*, XV, 199—200.

٢ – نعوم شقير ، تاريخ السودان القديم والحديث وجغرافيته ، القاهرة ، ١٩٠٣ ، جـ ٣ ، ص ٢٠.

٣ – Burckharde, *Op.cit.*, 68, 257;
(Omer Toussoun, Op.cit, *Bulletin de L' Institute*)

طويلة عن عددهم وعن من مات منهم أنعم محمد على عليهم بالأمـان على أن يلتزمـوا بخمسـة شروط ، ذكر الجبرتى أربعة منها • وهى أولا أن يرسلوا مندوبا عنهم يخبر الوالى بتحركاتهم ، ثانيا ألا يأخذوا شيئا من أموال أهـل الصعيد فى مصر ، على أن يقدم لهم مندوب الوالى كـل ما يحتاجونه ، ثالثا ألا يقطعوا أرضا بل تلتزم الدولة بتقديم كافة حاجياتهم ، رابعا إذا أخل المماليك بأى شرط من هذه الشروط أو طالبوا ببعض الإمتيازات التى كانوا يتمتعون بها مـن قبل ينتقض العهـد (١) •

وقد اتخذ محمد على تلك الشروط وسيلة يخضع بها مـن ينوى العودة من المماليك إلى مصر مدفوعا بالحنين والرغبة فى الاستقرار • كما أن وجودهم بالسودان أيضا ظل يقلقه باستمرار فقرر استمالتهم • ولا شك أن عمليـات الغدر المتكررة من محمد على وأعوانه قللت من فرص الثقة بوعوده وقبـول شروطه • ولعلها هى التى حدت بعبد الرحمن بك ، الأمير المملوكى ، أن يخبر الرسول الذى حمل الشروط : « قـل لمحمد على بأننا لن نلتـزم بأى شروط مـع الخـدم » (٢) •

ولا ندرى ما أدى إليه ذلك الإتصال ، ولكن سكوت المصادر يرجح أن المماليك وربما نتيجة لضغط من قادتهم ، فضلوا الحياة بما فيها من قسـوة فى المنفى على الحياة السهلة التى يعرضها عليهم محمد على باشـا فى ظـل القهر والخضـوع •

وحقيقة الأمر أن محمد على كان يفكر فى القضاء على مماليك دنقلا بعد أن استفحل أمرهم واستكثروا من شراء العبيد وصنعوا (ربما كان الصـواب اشتروا) لهم مدافعا (٣) • فقرر إبادتهم إبان فتحه المرتقب لبلاد النوبة وسنار والراجح أن اجتثاث فلول المماليك كان مـن العوامـل التى دفعته إلى ذلك المشـروع (٤) •

---

١ ـ الجبرتى ، ٤/٢٤٦ ـ ٢٤٧ .

٢ ـ Waddington & Hanbury, *Op.cit.*, 230.

٣ ـ R. Hill, *Egypt in the Sudan*, London, 1963, 8.

٤ ـ انظر تفاصيل أسباب فتح السودان فى : حسن ابراهيم ، رسالة ماجستير ، جامعة الخرطوم ، ١٩٦٥ ، ٦٧ ـ ١٠٠ .

ومع أننا لا نعرف الوقت الذى اتخذ فيه محمد على ذلك القرار إلا أنه فى سنة ١٨١٨ بعث بصهره محمد بك خسرو الدفتردار فى رحلة تفتيشية لبلاد النوبة السفلى ، وفى العام التالى قام محمد على نفسه برحلة مماثلة • وفى عام ١٨٢٠ كانت أخبار غزوه المرتقب لدنقلا لطرد المماليك قد عمت الديار المصرية(١)•

فلما علم المماليك بالجيش الذى أعده محمد على لفتح السودان إرتبكوا وأصاب وحدتهم التصدع وقرر بعضهم العودة إلى مصر • ففى تاريخ سالف إلى ١٣ رمضان ١٢٣٥/٢٠ يوليو ١٨٢٠ ، أى فى نفس الموعد الذى تحرك فيه الجيش التركى المصرى نحو السودان ، هرب سليمان بك نجل ابراهيم بك وأربعة من رفاقه إلى وادى حلفا ومنها إلى أسيوط • كما أن مصطفى الكاشف وهو من جماعة الألفى قد لحق بهم وذكر لمأمور وادى حلفا أن جميع المماليك الصغار عازمون على المجىء عدا عبد الرحمن بك والمنفوخ •• (٢) •

وفى شوال ١٢٣٥/يوليو اغسطس ١٨٢٠ وصل الجيزة نحو خمسة وعشرين (٣) مملوكا من دنقلا ، وكان من بينهم ابن على بك أيوب الذى طلب أمانا لوالده فأجيب إلى ذلك ، وأرسل الوالى أمانا لمن تبقى من المماليك فى دنقلا عدا عبد الرحمن بك ومحمد المنفوخ فلما جاء الرسول يحمل الأمان لعلى بك أيوب وتأهب للرحيل ، حقد عليه المماليك وقتلوه (٤) •

وفى ١٥ ذو القعدة ١٢٣٥ أغسطس ــ سبتمبر ١٨٢٠ (أى عند وصول الجيش إلى وادى حلفا) بلغ عدد من قدم من دنقلا خمسين إمرأة من زوجات المماليك وأربعة عشر مملوكا من جماعة على بك الفيومى ، وعلى بك الكوسة والألفى وأفادت هذه الجماعة أن صغار تلك الطائفة يريدون الحضور إلى مصر، كما أن كبارهم يفكرون فى السفر إلى الحبشة (٥) •

---

١ ــ Waddington & Hanbury, *Op.cit.*, 230.

٢ ــ دفتر رقم د/م ت/ن م ت/٢٢٦ بتاريخ ١٢ رمضان ١٢٣٥ ، دار المحفوظات القاهرة .

٣ ــ جاء فى دفتر م م ت/ن م ت رقم ٣٩٥ بتاريخ ٣ شوال ١٢٣٥ دار المحفوظات القاهرة ان عددهم اربعة وعشرين .

٤ ــ الجبرتى ، ٤/٣١٠ .

٥ ــ دفتر رقم م م ت/ن م ت/رقم ٣٠٧ه ذوالقعدة ١٢٣٤ ، دار المحفوظات ، القاهرة .

تقهقر المماليك الى شندى وكردفان ودار فور ووادى :

لما غادر الجيش التركى المصرى اسوان تتقدمه فرقة مكونة من خمسمائة جندى بقيادة محمد بك خسرو الدفتردار لاستكشاف بلاد النوبة حتى حدود دنقلا ، أسرعت فلول المماليك فى شد الرحال نحو شندى (١) • وعندما سمع الشايقية برغبتهم فى الانسحاب أعدوا لهم كمينا ، ولكن المماليك باغتوهم ، وقتلوا جميع من أسروه منهم • ومن كورتى اتجه المماليك عبر صحراء البيوضه إلى شندى • ويبدو أن من انسحب إلى شندى كان يمثل أغلبية بقايا المماليك، إذ قدر بعض الرحالة عددهم بنحو ثلثمائة مملوكاً ، وضعف هـذا العدد من النساء والخدم (٢) • ويروى كايو أن جملة من بقى من فلـول المماليك لـم يتجاوز الثمانين ، واستسلم عشرون منهم لاسماعيل باشا بينما لجأ الباقون إلى شندى (٣) • ولاشك أن التقدير الأول أقرب إلى الصواب إذ أن جمـلة من قتل منهم فى حروب الشايقية ومن هرب منهم إلى مصر لم يتجاوز المائتين مـن مجموع عددهم الذى يقدر بأربعمائة كما أن دنهام قابل آخر فلولهم بالقرب من طرابلس فى سنة ١٨٢٢ وذكروا له أن عددهم كـان ثلثمائة وخمسين (٤) مملوكا عندما غادروا دنقـلا إلى شـندى •

وفى صـفر سنة ١٢٣٦ / نوفمبر ١٨٢٠ أفـاد الجواسيس الذين أرسلهم اسماعيل باشا لرصد تحركات المماليك بعد استقرارهم فى شندى ، أن المماليك لم يلتفتوا إلى تحريض ملك الحلفاية لهم بالصمود لقتال اسماعيل باشا ، بـل أعلنوا أنهم غـير قادرين على مواجهته • كما أن بعض عبيدهم فروا إلى عربان الكبابيش • ومع أن بكوات المماليك وكشافهم لم يبتوا برأى قاطـع فيمـا يفعلون ، إلا أن الجواسيس ذكروا أنهم يريدون الذهاب « للموضع الذى يقال

---

١ ـ وصلت جماعة من أمراء المماليك القاهرة فى غرة ربيع الاول ١٢٣٦ / ٧ ديسمبر ١٨٢٠ فى حالة رثة . انظر الجبرتى ٣١٧/٤ . وفى أواخر رجب ١٢٣٦ / ابريل ـ مـايو ١٨٢١ وصلت جماعة أخرى فيها ثلاثة من السناجك من بينهم أحمد بك الالفى صهر ابراهيم بك الكبير « الجبرتى ٣١٨/٤ ».

٢ ـ Waddington & Hunbury, *Op.cit.*, 230.

٣ ـ B. F. Cailliad, *Voyage a Meroe* etc. 1819—22, Paris, 1823, 11,9.

٤ ـ Denham, *Narrative and Discoveries in Northern Central Africa* in the year 1822, 1823, 1824, 1825, London, 1828, ppLV.

له بحر أتبره ، لقربه من مصوع ، طامعين (فى) الذهاب إلى جهة الهند بالقوارب التى تقلهم » (١) .

ولاشك أن هذه الأنباء قد أقنعت اسماعيل باشا بسرعة المبادرة لكسب ولاء أولئك المماليك قبل أن يفتلوا من قبضته . فلما وصل بربر فى مارس ١٨٢١ وجد فيها جماعة من مماليك دنقلا الذين هربوا إلى شندى كانت قد شقت طريقها إلى بربر حديثا ، وانضمت إلى طائفة أخرى (بقيادة سليم بك الطويل) لم تذهب إلى دنقلا إبان هجرة المماليك إلى السودان بل اتجهت إلى بربر حيث رحب بها ملكها خوفا من بطشها . وسلمت هذه الجماعة نفسها إلى اسماعيل باشا ، فأعطاها الأمان وأهداهم الهدايا وبعث بهم لوالده (٢) .

وسعى اسماعيل باشا لتحقيق نفس الهدف مع فلول المماليك فى شندى ، فلما ذهب مندوبه لمقابلة الملك نمر فى شندى عرض عليهم الأمان ووعدهم بحسن المعاملة . وأخيرا وجد مثل هذا القول أذنا صاغية عند قلة من المماليك ممن أضناها التعب ولم تر فائدة من الحرب وهم لا حول لهم ولا قوة لمواجهة اسماعيل . فانصرف نحو مائة مملوك ومئات من العبيد إلى بربر لمقابلة اسماعيل . فوعد الأوائل خيرا ، بينما انخرط الأواخر فى الجيش التركى (٣) أما الأغلبية التى لم تعرف عن أسرة محمد على باشا سوى الغدر والخداع ولم تعد ترى مخرجا من جيش اسماعيل الكاسح سوى الابتعاد عن بطشه إنقسمت إلى شطرين ، شرذمة إتجهت نحو البحر الأحمر (وربما الحجاز) واتجهت الفرقة الثانية وهى أكبرهم عددا وأكثرهم منعة وقوة وأفضلهم قيادة بزعامة عبد الرحمن بك المنفوخ نحو كردفان غير عابئة بما ينتظرها من مصير (٤)

والتجأ المماليك إلى المقدوم مسلم ، وإلى سلطان الفور على كردفان الذى سمح لهم بالإقامة . ولكن الاستقرار الذى كانوا يحلمون به لم يطل كثيرا ، إذ أن جيشا تركيا آخر بقيادة محمد بك خسرو الدفتردار قد خرج من القاهرة

---

١ ـ محفظة ١٩ ، بريد وثيقة ١١٩ ، من اسماعيل باشا الى الجناب العالى ، بتاريخ ١٤ صفر ١٢٣٦ ، دار المحفوظات ، القاهرة .

٢ ـ G. B. English, *Narrative of the expedition to Dongola and Sennar*, London, 1822, 110—111.

٣ ـ *Ibid*, 110—111.

٤ ـ Waddington and Hanbury, *Op.cit.*, 230.

فى يوم ١٧ رجب ١٢٣٦ / ١٠ ابريل ١٨٢١ لغزو كردفـان ودارفور • وجاء فى رسالة بتاريخ ٧ شوال ١٢٣٦ / ٨ يوليو من الدفتردار لمحمـد على باشـا أن الأمراء المماليك المقيمين بكردفان قد اتصلوا بالسلطان محمد الفضل ، سلطان دارفور والتمسوا منه أن يمد المقـدوم مسلم ويعينه على مواجهـة الجيش القادم • وأوضحت الرسالة أن جماعة بقيادة خـازن المنفـوخ بك وأتباعـه وخمسة عشر مملوكا عادوا من كردفان إلى دنقلا (١) •

وما أن هزم المقدوم مسلم حتى تابع المماليك سيرهم إلى دارفور ولكن سلطان دارفور لم يسمح لهم بالإقامة فى دياره • ولعل الأسباب فى ذلك ترجع إلى مابلغه من معاملتهم السيئة لحكام دنقلا الذين أحسنوا استقبالهم وأكرموا وفادتهم • (وكانت رغبة سلطان الفور فى السلام مـع محمد على باشا تحتم عليه ألا يفعل مايثير حفيظة والى مصر ضده) كما أن بلاط الفور مازال يذكر مؤامرة أحمد أغا الزاتتى اليونانى الأصل ، والذى كان يعمل فى خدمة الزعيم المملوكى مراد بك القزوغلى فى مصر • وكان احمد اغا هذا يجيد صنع المدافع وقد قدم بناء على دعوة من السلطان إلى الفاشر سنة ١٧٩٦ (وربما بقصـد التجسس على البلاد لمعرفة إمكانية غزوها من مصر) وكسب ثقة السلطان ودبر مشروعا لخلعه بمعاونة بعض الوزراء فاكتشف أمره وقتل شر قتلة (٢) • ورغم أن أحمد آغا لم يكن من طبقة المماليك إلا أن صلته بمراد بك ومحاولته خلـع السلطان نبهت الأذهان إلى ما يمكن أن تفعله تلك الجماعة وهى أكثـر عددا وأوفر عتادا من أحمد أغا •

ومن دارفور تحرك المماليك نحو دارا عاصمـة واداى ، وهناك أيضـا رفضت إقامتهم ، ربما لنفس الأسـباب التى دفعت الفور على طردهم • وفى

---

١ ـ محفظة ١٩ / وثيقة رقم ١٨ من اسماعيل باشا الى ولى النعم ، بتاريخ ١٦ رمضان ١٢٣٦ ، دار المحفوظات ، القاهرة .

٢ ـ R. S. O'Fahey, *The Growth and the Development of the Keira Sultanate of Dar Fur*, Ph. D. thesis, University of London, 1972, 203—8.

A. Auriant, "Histoire d' Ahmed Aga Le kantiote, un profet de Conquete du Dar Fur (1796—99) "*Revue de L'histoire des Colonies, Vancaises, XIV*, (1926), 181—234;

محمد بن عمر التونسى : تشحيذ الاذهان بسيرة بلاد العرب والسودان ، القاهرة ، ١٩٦٥ ، ١١٨ ـ ١٢١ .

واداى هام المماليك لفترة أربعـــة شهور فى شـــقاء إذ رفض أهل واداى أن يبيعو نهم آى شىء ، بل أجبروهم على التخلى عن خيولهم • وهناك اتفق المماليك عدا ستة وعشرين منهم أن يواصلوا رحلتهم صوب الجنوب ، ولكنهم سرعان ماعدلوا عن رأيهم واتجهوا صـــوب جيش محمد على باشـــا باحثين عن العفو والأمان فى كنفه • ولم يعرف شىء عن مصير هذه الجماعة •

أما الستة والعشرون مملوكا فتركوا واداى فى شهر رمضان ١٢٣٧/مايو ١٨٢٢ ونزحوا حتى لحقوا بقافلة لبعض أهل فزان كانت فى طريقها إلى مرزوق• وعند مرورهم ببلاد التيبو والبرقو عـــار بعير لهم ونزع فـــرع نخلة ، فغضب البرقو وجرحوا أحد عبيد المماليك • فنشبت معركة بين البرقو والمماليك إنتهت بقتل عشرين من المماليك • وهكذا كان للسماليك أن يعانوا • وعندها أخـــذ المماليك الستة الباقون طريقهم إلى طرابلس ، على أمـــل أن يحصلوا من واليها على الإذن لقضـــاء بقية حياتهـــم فى كنفـــه •

وفى طريق القافلة بين مرزوق وطرابلس ، وعند مدينة تسنهيت إلتقى دنهام الرحـــالة الانجليزى فى العشرين من اكتوبـــر سنة ١٨٢٢ بالمماليك الستة • وهناك قصوا عليه جانبا من أخبارهم منذ أن حـــلوا بواداى • وكـــان من بين المماليك إثنان من الأمراء هما محمد بك المنفوخ فى ريعان الشباب ، وعلى بك وكان عمره يتراوح بين الخمسين والستين • ومع قبولهم لمبـــدأ الإستسلام فى آخر أيامهم فإنهم كانوا يجهلون أن السلطان العثمانى قد بعث بفرمان لولاته على ساحل البحر الأبيض المتوسط الغربى يأمرهم بقتل كـــل من يلجـــأ إليهم من نجـــاة المماليـــك (١) •

خاتمـــة :

ومهما يكن من مصير أولئك الستة فإن نجـــم طبقه المماليك كمؤسسة عسكرية أدارت دفة الحياة السياسية فى مصر لبضعة قرون وأثرتها بكثير من المظاهر العمرانية وأنقذتها من العدوان الخارجى قد أفل • ولم يعد من السهل لشرذمة كهذه أن تعيد لطبقة المماليك تالد مجدها ، ولذلك خلا المسرح السياسى

---

١ - Denham, *Op.cit.* pp. LV—LVI.

لمحمد على من شرهم • كما أن محمد على كان قد نجح فى احتواء كثير من صغار المماليك ، ممن لم يهاجروا مع ذويهم إلى بلاد النوبة ، فى إطار دولته الحديثة •

أما أثر أمراء المماليك على السودان إبان سيطرتهم على دنقلا التى دامت تسع سنوات فليس واضحا • فقد كان دخولهم أول الأمر عفويا دون تخطيط سياسى واع • ولكن نجاح تلك الشرذمة المسلحة من المماليك فى فرض حكمها على منطقة دنقلا رغم مقاومة الشايقية كشفت لمحمد على باشا مدى الضعف والتفكك الذى تردت إليه سلطنة الفونج • ولم يتوان فى توجيه ضربته لها جاعلا من تحطيم المماليك أحد أهدافه • وكان لحملات المماليك وتحركاتهم فى بلاد النوبة ، العليا والسفلى أثر فى خلق نوع من الإضطراب والفوضى السياسية مما سهل مهمة جيش اسماعيل • إلا أن حروبات الشايقية والمماليك أحدثت نوعا من التكافؤ والتوازن فى القوى وصرفت الشايقية عن الإغارة على جيرانهم إلى الجنوب ليواجهوا عدوهم الأكبر •

ولعل وجود جيوب من السكان ذوى البشرة الفاتحة فى منطقة دنقلا يرجع أنهم من سلالة من تزاوج من المماليك بالنوبيات وبغير النوبيات فى تلك المنطقة • وهذه نقطة تحتاج إلى دراسة ميدانية قبل القطع فيها برأى •

كما يصعب تحديد موضع من هام منهم فى البلاد عند اقتراب جيش اسماعيل باشا من شندى (١) •

ولم أجد مايؤيد ما ذهب إليه الأستاذ الشاطر البصيلى عبد الجليل من أن حرق اسماعيل باشا كان نتيجة خطة مدبرة من بعض المماليك الذين عادوا إلى شندى بعد خروج جيش اسماعيل منها (٢)

---

١ ــ يزعم البعض إن بقاياهم مازالت موجودة فى شندى ودارفور .

٢ ــ الشاطر بصيلى عبد الجليل ، معالم سودان وادى النيل ، القاهرة ، ١٩٥٥ ، ١٣٠ ــ ١٣٤ .